

# من السوسيولوجيا النقدية إلى النظرية النقدية

ايمانويل رونو

عالم اجتماع ومفكر فرنسي

**ترجمة الأستاذ محمد الإدريسي**

باحث مغربي في الفلسفة والتربية وعلم الاجتماع

[mohamed-20x@hotmail.com](mailto:mohamed-20x@hotmail.com)



## من السوسولوجيا النقدية إلى النظرية النقدية

**بقلم : إيمانويل رونو**  
**ترجمة : أ.محمد الإدريسي**

يعرف Fabien Granjon فايان غرانجون السوسولوجيا النقدية- في مقالته "هل يستحق النقد اهتمام السوسولوجيا؟"- انطلاقاً من مفهوم النقد المستوحى من النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت. إلا أنّ هذه العملية، في حدّ ذاتها، متناقضة، لأن فكرة السوسولوجيا النقدية تظلّ مرتبطة، في السياق الفرنسي، بالأعمال البوردويوية، التي لا تدين في نموذجها الاستيمولوجي بأي شيء لمدرسة فراكفورت. بالإضافة إلى اختلاف الظروف الاستيمولوجية بين التيارين، بما في ذلك الانفتاح والاستقبال المتأخر وغير المنظم للسوسولوجيا النقدية الألمانية، الأمر الذي ساهم في تحويل النظرية النقدية إلى نوع من "الفزاعة" الاستيمولوجية، استناداً إلى "وساطة الأسطورة الكارثية لأدورنو، الذي من المفروض أن ينخرط في فلسفة للتاريخ الغابر وميتافيزيقا الشمولية الاجتماعية"<sup>1</sup>.

1- أود أن أحييل، بخصوص وصول النظرية النقدية إلى فرنسا، إلى إيمانويل رونو "فوكو ومدرسة فرانفورت" (2006)، و"هابرماس، فوكو: مسارات متقاطعة، منشورات CNRS، وإلى "مع وضد النظرية النقدية باسم ثورة 1968" (-) <http://colloque-mai68.ens-lyon.fr/spip.php?article-> (88). لنقد شامل للأفكار التشاؤمية لأدورنو وفلسفته الاجتماعية الكلية، أنظر خاصة: موتو (2010)، "مقالة عن ادورنو"، بايوت . الترجمة الاخيرة للكتابات السوسولوجية (ادورنو [2011]، المجتمع: التكامل والتفكك، بايوت). يجب العمل على التصحيح التدريجي لسوء التفسير الذي قد اعتمده فايان غرانجون ؛ أحياناً؛ لتجاوز القراءة المتناقضة للمعطيات المقدمة.

## تحالف متناقض

إن هذا التحالف المتناقض مثمر جدًا لتطور النظرية النقدية إن هي اعتمدت على القاعدة الانعكاسية الذاتية في بعدها الاستيمولوجي (على مستوى المبادئ والمناهج) والسوسيولوجي (على مستوى الوضع الاجتماعي للباحث) والسياسي (على مستوى القيمة الاجتماعية لاختيار المواضيع والعواقب السياسية لبناء موقف منها)، والكفاح من أجل بناء تنظير يتجاوز الحدود الضيقة لمنطق التخصص، مما يدفع إلى الشك في مدى صلاحية منطق التخصص والتقاطع بين التخصصات والحقول المعرفية، أمام التداخل بين مختلف التوجهات والأفكار النظرية، إلى الحد الذي أصبح معه الحديث بشكل مستمر عن تناغم بين التخصصية والتقنوية، التي أصبحت تؤثر سلبًا على القيم النظرية كما القيم الاجتماعية للمعرفة السياسية، لذلك يمكن أن ننظر إلى فكرة النظرية النقدية كإعادة تصحيح لهذا الواقع.

علاوة على ذلك، فإن فكرة النظرية النقدية شكلت بديلاً من البدائل المغلوطة التي يتم التلويح بها ضد السوسيولوجيا النقدية: السوسيولوجيا النقدية أو سوسيولوجيا النقد. تحيل "النظرية النقدية"؛ في الآن نفسه؛ إلى ذلك الامتداد النظري للممارسة الاجتماعية النقدية ما قبل النظرية، والانعكاسية الاستيمولوجية، والسوسيولوجية والسياسية للوضع والشكل، ومختلف آثار هذا الامتداد النظري. يمكن القول إن النظرية النقدية في الآن نفسه، سوسيولوجيا نقدية انعكاسية لذاتها، على شاكلة سوسيولوجيا النقد، وسوسيولوجيا للنقد الانعكاسي في مضامينها الاجتماعية والسياسية.

ليس من المستغرب أن نجد فابيان غرانجون يجمع بين فكرة النظرية النقدية كأساس ضروري للانعكاسية والذاتية، وبين ما نسمعه في المعنى السياسي والسوسيولوجي من "انعكاسية ذاتية". يبدو أن أدورنو كان على حق في مسعاه المعارض لمطالب السوسيولوجيا الملتزمة، التي ازدهرت خلال ستينيات القرن العشرين، إذ لا يمكن للنظرية النقدية أن تعطي ثمارها في حقل العلوم الاجتماعية، لأنها لم تنخرط - ليس فقط - في

منطق الانعكاسية الذاتية، بل لم تنخرط أيضا في "مشروع" النظرية الاجتماعية<sup>2</sup>، فمؤشرات الاختلاف الاجتماعي، وديناميات التخصص في العلوم الاجتماعية، والنماذج الميتودولوجية الصاعدة، لا تتلائم مع أي تنظير حول المجتمع (على الأقل إننا نجد التنظير متمظها بشكل كبير في الانعكاسية الذاتية الاستيمولوجية، وفي التعبير الدقيق عن المبادئ والمفاهيم وخلصات المعارف) عندما تفشل السوسولوجيا النقدية في استبعاد النظرية الاجتماعية التي تريد "نقدها"، وأود هنا أن أفتح النقاش أمام مسألتين أساسيتين: الأولى مرتبطة برفض السوسولوجيا النقدية، والثانية مرتبطة بإقصائها من مرتبة الفئة المهيمنة.

### رفض السوسولوجيا النقدية:

كيف يمكن تفسير تزايد خصوم "السوسولوجيا النقدية"، ضمن سياق السوسولوجيا الفرانكوفونية بين السنوات 1990 و 2000، وإجماع السوسولوجيين على مبدأ "الكل قابل للمعارضة"، الذي تم التعبير عنه في كثير من الأحيان بواسطة السخرية الكاريكاتورية؟ يأخذ فايبيان غرانجون هذه القضية على محمل الجد؛ ومعه كامل الحق؛ ففي الواقع، ارتبطت فكرة السوسولوجيا النقدية ببيير بورديو، في الوقت الذي تمكن فيه من ممارسة هيمنة جزئية على مختلف التغيرات: من أجل العمل على إحياء كثير من البرامج والبحوث الأخرى، رغبة في تأسيس الالتزام والهيمنة النوعية. رغم انقطاع السبل فإن القراءة المختارة التي قدمها فايبيان غرانجون (نعلم أنه عمل مضمّن) لا يمكن أن تساعد على بناء تصور مرجعي أكثر دقة؛ ربما فقط بعض التصورات العامة المرتبطة بتغيرات المشهد السياسي والثقافي. "يستحيل" تحليل "الحروب" [الانتقادات] التي شنت ضد السوسولوجيا،

T.W.Adorno Philosophische Elemente Einer Theorie Der Gesellschaft, Suhrkanp. -2  
ومن أجل تكوين فكرة على النظرية الاجتماعية لدى ادورنو أنظر: E. Renault (2011), « Adorno : Dalla Filosofia Sociale Alla Teoria Sociale » Quaderni Di Teoria Sociale, 11 (ستنشر النسخة الفرنسية في دورية بحوث في اللغة والمعرفة "من الفلسفة الاجتماعية إلى النظرية الاجتماعية").

من منظور سوسيولوجيا المعرفة، أو سيكولوجيا ديناميات العمل<sup>3</sup>، أو حتى تاريخ الأفكار. سوف أحاول التدقيق في ثلاث حجج يمكن أن تؤسس لأطروحة أن السوسيولوجيا لا يمكن أن تقوم بدور النقد دون أن تناقض مصداقية صلاحيتها.

يمكن أن يعتمد نقد السوسيولوجيا النقدية (بشكل عام، وليس فقط ضمن النسخة البوردويوية) على حجج المثقفين الوصفيين وكذلك التعدديين؛ منذ (ديوي)؛ سيرا على تقليد يعارض المثقفين الذين يزعمون أن المعرفة غاية في حد ذاتها منذ النزعة البراغماتية التي تصر على أنها أساسا وسيلة لتلبية حاجات و الأفراد والمجموعات الاجتماعية ومصالحها. لا يقتصر انتقاد السوسيولوجيا النقدية على الرهانات النظرية أو التجريبية المحددة للسوسيولوجيا كفضاء استدلالي دقيق يفرض جدلا نموذجية المثقفين ضد كل من يقوم مقامهم . بعد ديوي، وهوركهايمر، وادورنو، وبرماس، حيث تقاس المعرفة بغاياتها العملية والمصلحية، يجب أن ترتبط المعرفة بانعكاسية نقدية لطبيعة هذه المصالح وقدرة المعرفة نفسها على تحقيق تلك المصالح.

تتطلب الحجة الوضعية من السوسيولوجي أن يرضى بالأحكام الواقعية، ويستبعد كل أحكام القيمة. هذه الحجة نفسها لم تستفد من الشرط "الفيري" المرتبط "بالحياد فيما يتعلق بالقيم" كما أشار إلى ذلك فايان غرانجون، عن طريق اتخاذه كواحدة من الموضوعات الرئيسية لنقد أدورنو لبوبر: كل مواضيع الاستطلاعات غير متساوية، ولا ينبغي على السوسيولوجيا أن تخجل من الاهتمام بموضوع الإشكاليات العميقة للحياة الاجتماعية، من أجل المساهمة في الأحسن وتجاوز الأسوأ<sup>4</sup>.

3- ربما نجد عناصر مفيدة ضمن تحليلات ديفرو (1980) لأصول التداخل بين التخصصات، من قلق المنهج في العلوم السلوكية، أوير، أو في وصف "الأيديولوجيات الدفاعية عن المهنة" لدى دجور (2008)، "العمل استيلا ب عقلي"، بايار و مولينير (2008)، و"الرهانات النفسية للعمل" بايوت.

4- حول هذه النقطة انظر :

Adorno (1979), « Introduction ». In De Vienne à Francfort. La Querelle Allemande Des Science Sociales, Complexes, p.52-55.

في النهاية، إن حجة التعددية هي الحجة الوحيدة التي تستحق أن تأخذ على محمل الجد، حيث تعتبر أن العلوم الاجتماعية يجب عليها أن تأخذ الطبيعة الجزئية للمعرفة من منطلق عدم اختزال: أ-تعدد طبقات الحياة الاجتماعية (في التفاعلات الميكرو-اجتماعية، والمؤسسات المتوسطة، والهيكل الكبرى والقيود النظامية)، ب- لا تجانس الأشكال الواضحة للظواهر الاجتماعية (التغيرات الاقتصادية، السوسولوجية، السيكو-اجتماعية..الخ)، ج- تنوع وجهات النظر الاجتماعية حول نفس الحدث. من المستحيل تبني تمفصل مع النقد الذي يرتبط بدوره بهذه المواضيع بشكل عام (لأنه يفترض عدم إمكانية تبريره من منظور مختلف). كرد على هذا النوع من الاعتراض، نفترض أننا أخذنا مسار النظرية الاجتماعية في تصورهما العام لطبقات الحياة الاجتماعية وصياغة أشكال العقلانية ووجهات النظر الاجتماعية، سنجد أن الأمر لا يتم إلا عبر وسيط بين نظام الأولوية وقاعدة التبعية. إنه استعراض موجز إذا للنقاش حول أصناف الهيمنة الراجعة.

### إقصاء أصناف الهيمنة:

تعد مسألة الهيمنة، نقطة التقاء واضحة بين السوسولوجيا النقدية والنظرية النقدية، لكون الأولى غالباً ما تحدد كسوسولوجيا للهيمنة، بينما تؤول الثانية أحياناً، إلى محاولة لتجاوز التقليد الماركسي للهيمنة الاقتصادية (العمليات)، والسياسية (مختلف أشكال سلطة الدولة) والإيديولوجية<sup>5</sup>. تمر الهيمنة أيضاً عبر أنواع مختلفة من الروابط الاجتماعية (من هنا ارتبطت دراسات "هوركهايمر" و"أدورنو" بالأسرة والشخصية السلطوية، ثم ارتبطت دراسات "هابرماس" و"هونتش" ب"المجالات" الاجتماعية) وعبر الثقافة (من هنا نجد سوسولوجيا الموسيقى وتحليل الصناعات الثقافية لدى أدورنو). كان من النادر وجود نقطة تقاطع بين هذه الاهتمامات حتى وقت قريب، حيث كان من الشائع النظر في نقطة الهيمنة كنمط ماضوي.

5- T.Schoyer (1980), Critique De La Domination. Origines Et Développement De La Théorie Critique, Payont.

إن رفض مسألة الهيمنة من قبل السوسيولوجيا الفرانكوفونية، ظاهرة أكثر إثارة للدهشة من تلك "الحروب التي شنت" ضد السوسيولوجيا النقدية. كيف يمكن أن ينشأ تخصص رافض لمفهوم من المفاهيم الأساسية منذ "فيبر، ويحاول استبداله؟ بلا شك، كان لانهايار الماركسية، والدول المتبينة لها، دور حاسم في ذلك، والحقيقة أن نقد الهيمنة كان مركز الجرح النرجسي للإنسانية الذكورية، أما بالنسبة إلى النسائية فمن المحتمل أن هناك عاملا حاسما آخر. إن منطلق مسألة الهيمنة يكمن في جعل النقد متعدد الجوانب<sup>6</sup>، وبالخصوص قمع قدرة الفاعلين على المقاومة (كما لو أن نقد الهيمنة لا يخدم الوظيفة الرئيسية للدفاع أو تعزيز مقومات الهيمنة)، وينطوي على انحراف سلطوي؛ وتسييسي [سياسي]؛ عبر تخصيص السوسيولوجيا بميزة التشخيص السياسي (وكان نقد الهيمنة لم يظهر في المقام الأول عبر الحركات السياسية والحركات الفوضوية على وجه الخصوص). يمكن أيضا أن نسجل على نظريات الهيمنة كونها تفترض أن كل شيء مرتبط بالهيمنة ( كما أن استخدام هذه المسألة كان ضروريا وفي محله).

يبدو من المشكوك فيه بروز إمكانية الاستغناء عن النظرية النقدية للمجتمع عبر تحليل نقدي لعلاقات الهيمنة، لكن الأمر لا ينظم سؤال مكان الهيمنة في العالم الاجتماعي، ولا النماذج المستخدمة في هذا الوصف. تحمل "الهيمنة" حسب بورديو نموذجين، اعتمادا على ما إذا كانت تندرج ضمن العلاقات الاجتماعية (كما هو الشأن بالنسبة للهيمنة الذكورية) أو ضمن منطق نظرية "الحقول"<sup>7</sup>، وتتقاطع النقاشات وتشارك في النمط نفسه المرتبط بمختلف العلاقات الاجتماعية للهيمنة<sup>8</sup>، الأمر الذي

---

6- للمراجعة النقدية أنظر:

C.Gautier (2011), « La Domination En Sociologie n'est-elle Qu'une fiction ? », Actuel Marx, N° 49.

7- نقطة أرزها B.Lahire، خصوصا في كتابه الأخير:

B.Lahire (2012), Monde Plurie. Penser L'unité Des Sciences Sociales , Le Seuil.

8- أنظر بالخصوص إلى:

E.Dorlin (dir), Sexe, Race, Classe. Pour une épistémologie De La Domination, PUF.

يصعد من حدّة تعقيد النقاش وتركيبه. بالإضافة إلى ذلك، فإن النموذج البورديوي للهيمنة المشتغلة في الخفاء يتعارض مع النموذج الفيبري للهيمنة التي تحتاج إلى الشرعية. يبدو واضحا أن هذين النموذجين مكملان لبعضهما البعض<sup>9</sup>، وأن هذه الأسئلة أساسية للسوسيولوجيا النقدية، التي لم يتناولها فابيان غرانجون بطريقة مختلفة في مقالاته. إننا اليوم في ميدان للنظرية الاجتماعية، حيث الفضاء خصب للاستثمار.

---

9- كما اقترح:

M.Burawoy (2011), « La Domination est-elle si Profonde ?Au-delà De Bourdieu Et De Gramsci »,Actuel Marx, N50.